

343366 - أوثان القبوريين

السؤال

أريد توضيح ما يقصد ابن القيم -رحمه الله- بالوثن في البيت الثاني "والله ما غضبوا إذا انتهكت محا... رم ربيهم في السر والإعلان حتى إذا قيل في الوثن الذي... يدعونه ما فيه من نقصان فأجارك الرحمن من غضب ومن... حرب ومن شتم ومن عداون وأجارك الرحمن من ضرب وتع... زير ومن سب ومن تسجان والله لو عطلت كل صفاتك... ما قابلوك ببعض ذا العداون

الإجابة المفصلة

هذه الأبيات هي من ضمن أبيات ذكرها ابن القيم رحمه الله تعالى في بيان التوحيد الذي جاءت الرسل ببيانه وهو توحيد العبودية، وبيان أن فرض الله تعالى على العباد أن يفردوه سبحانه وتعالى بالعبادة، فلا يوجهوا شيئاً منها إلى غيره من صلاة وصيام ودعاء ونذر وحج وتوكل وسائر عبادات القلب والجوارح.

فنبه ابن القيم رحمه الله تعالى إلى ضلال بعض المنتسبين إلى الإسلام؛ حيث اتخذوا بعض شيوخهم، أو من يعتقدون فيه الصلاح والتقوى؛ فقصدوهم بالعبادة: بالحج إلى قبورهم ، وتوجيهه الدعاء إليهم بطلب الرزق والولد والشفاء ، وغيرها من أنواع العبادات التي لا يجوز أن توجه إلى غير الله تعالى، ويزعمون أن أصحاب القبور هؤلاء يشفعون لهم عند الله تعالى، فصنعوا كصنيع المشركين عباد الأواثن فقد تشبثوا بنفس شبهتهم.

قال الله تعالى منكرا على أمثالهم: **(إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً بِالْحَقِّ فَاعْبُدُوهُ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أُولَئِكَ مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيَقْرُبُونَا إِلَى اللَّهِ ذُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كُفَّارٌ)**. الزمر/2-3

وقال الله تعالى: **(فَمَنْ أَظَلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ * وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَاعَاؤُنَا إِنَّ اللَّهَ قُلْ أَنْتُبُوْنَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)**. يونس/17-17

قال ابن كثير رحمه الله تعالى:

"ثم أخبر تعالى عن عباد الأصنام من المشركين أنهم يقولون: (ما تعبدُهم إلَّا يقربُونَا إِلَى اللَّهِ ذُلْفَى)؛ أي: إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم، فعبدوا تلك الصور، تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة؛ ليشفعوا لهم عند الله في نصرهم ورزقهم، وما ينوبهم من أمر الدنيا، فاما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به.

قال قتادة، والسدي، ومالك عن زيد بن أسلم، وابن زيد: (إِلَّا يَقْرُبُونَا إِلَى اللَّهِ ذُلْفَى) أي: ليشفعوا لنا، ويقربونا عنده منزلة.

ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حجوا في جاهليتهم: "لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك".

وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه، وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، بردها والنهي عنها، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له "انتهى من "تفسير ابن كثير" (7 / 84 - 85).

عبد القبور شابهوا المشركين أهل الجاهلية، فأصبحت هذه القبور كأوثان أهل الجاهلية؛ لأن الوثن هي الحجارة المعبودة.

قال ابن فارس رحمه الله تعالى:

"الْوَثْنُ وَاحِدُ الْأَوْثَانِ: حِجَارَةٌ كَانَتْ تُعْبَدُ" انتهى من "مقاييس اللغة" (6 / 85).

ولهذا من توجه بأعمال العبادة إلى شيء غير الله تعالى من قبر أو غيره، فقد جعله وثنا؛ كما جاء في حديث أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم: (اللَّهُمَّ لَا تَحْجَلْ قَبْرِي وَثَنَّا، لَعَنِ اللَّهِ قَوْمًا اتَّخَذُوا قُبُورًا أَثْبَائِهِمْ مَسَاجِدً) رواه الإمام أحمد في "المسند" (12 / 314)، وقوى محققون المسند بإسناده.

قال بن عبد البر رحمه الله تعالى:

"الوثن: الصنم، وهو الصورة من ذهب كان أو من فضة أو غير ذلك من التمثال. وكل ما يعبد من دون الله فهو وثن، صنما كان أو غير صنم؛ وكانت العرب تصلي إلى الأصنام وتبعدها، فخشى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمته أن تصنع كما صنع بعض من مضى من الأمم؛ كانوا إذا مات لهم نبي عكروا حول قبره كما يصنع بالصنم" انتهى من "التمهيد" (5 / 45).

قال الشيخ محمد خليل هراس رحمه الله تعالى معلقا على هذه الأبيات:

"يقصد المؤلف بهذا الفريق : طوائف القبوريين، عباد الأضرحة، الذين يدعون الإسلام كذبا وزورا..."

فهؤلاء القبوريون قد جعلوا أصحاب هذه الأضرحة شركاء لله ، يوالونهم ويتقربون إليهم بأنواع القرابين من الذبائح والذئور، ويسيرونهم بالله عز وجل في المحبة، بل هم لهم أشد حبا، وبهم أكثر تعلقا، كما تدل على ذلك أحوالهم، وتنبئ عنه فعالهم، فإن أحدهم لا يغار ولا يغضب إذا انتهكت حرمات الله، وعمل بمعصيته في السر والعلانية، ولكنه إذا سمع من أحد الموحدين أنه يتعرض لوثنه الذي يدعوه ويعكف عليه، وأنه يصفه بما هو فيه من عجز ونقص حتى ولو كان هذا الوصف مأخوذا من القرآن، استشاط لذلك غضبا وأخذته حمية الجاهلية... انتهى من "شرح القصيدة النونية" (2 / 139 - 140).

والله أعلم.